المحاضرة التاسعة (09): قضية المنظوم والمنثور

مدخل: إن موضوع المنظوم والمنثور سيظل من القضايا النقدية الطريفة التي شغلت النقاد قديما وحديثا. فقد نشأت حول الفنين خصومات كانت لها جوانب متعددة أبرزها الجانب الفني.

العلاقة بين المنظوم والمنثور: لم تكن العلاقة واضحة بين المنظوم والمنثور في بداية نشأتهما كل الوضوح؛ حيث نشأ كل فن منهما مستقلا عن الفن الآخر، ثم أدى بهما التطور الأدبي بعد الك إلى الالتقاء في كثير من الصفات والخصائص الفنية. وله‌ا نلاحظ بعض الكتاب يجمعون في كتاباتهم بين الشعر والنثر، وترتب عن الك أن اكتسب الشعر بعض خصائص النثر، واكتسب النثر بعض خصائص الشعر.

ماهية الشعر:

أدى التطور الدلالي لكلمة شعر في العربية إلى أن أصبحت تعني ذلك النوع من الكلام المنغم المثير، الذي يفيد علما ومعرفة ببواطن الأمور، وخفايا النفوس وحقائق الحياة.

خاصية الوزن: يعد قدامة بن جعفر من أوائل النقاد الذين عرفوا الشعر ومؤداه: "الشعر قول موزون مقفى يدل على معنى". وهذا التعريف لا يعد جامعا مانعا لأن الفكرة قد تكون موزونة ودالة على معنى ولكنها ليست شعرا، لأن غاية الشعر توصيل اللذة، وغاية العلم الوصول إلى الحقيقة.

خاصية المحاكاة: الشعر في نظر أرسطو محاكاة، أي تمثيل لأفعال الناس الخيرة والشريرة، أو بمعنى أوضحنقل وتصوير لبعض جوانب من الحياة والعالم المحسوس، من خلال وجدان الشاعر، في عبارة لفظية، وقد يكون ذلك إما بتصويرها كما هي عليه في الواقع أو كما ينبغي أن تكون. والمحاكاة في رأيه صفة جوهرية تختص بالشعر، وهي التي تميزه من بعض فنون القول الأخرى كالنثر لا الوزن.

خاصية التأثير: ويرى حازم القرطاجني أنّ الشعر من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه. وبناء على هذا يفرق بين الشعر الجيد والرديء. قال ابن رشيق:

الشِّعْرُ شَيْءٌ حَسَنٌ ... لَيْسَ بِهِ مِنْ حَرَجِ
أَقَلُّ مَا فِيهِ ذَهَبُ الْهَمِّ عَنْ نَفْسِ الشَّجِي
يُحْكِمُ فِي لَطَافَةٍ ... حَلَّ عُقُودَ الْحُجَجِ
كَمْ نَظْرَةٍ حَسَّنَهَا ... فِي وَجْهِ عَذْرٍ سَمِجِ
وَحُرْقَةٍ بَرَّدَهَا ... عَنْ قَلْبِ صَبٍّ مُنْضَجِ
وَرحمةٍ أَوْقَعَهَا ... فِي قَلْبِ قَاسٍ حَرِجِ
وَحاجَةٍ يَسَّرَهَا ... عِنْدَ غَزَالٍ غَنِجِ

وَشَـــــــــاعِرٍ مُطَّـــــــــرِحٍ مُغْلَـــــــقِ بَـــــابِ الْفَـــــرَجِ
قَرَّبَـــــــــهُ لِسَـــــــــانُهُ مِـــــــنْ مَلِـــــكٍ مُتَـــــوَّجِ
فَعَلِّمُـــــــــوا أَوْلاَدَكُـــــــــمْ عُقَّـــــارَ طِـــــبِّ الْمُهَـــــجِ

خاصية أساليب العرب: واشترط بعضهم أن يكون الشعر جاريا على أساليب لغة العرب في التعبير والصياغة. قال ابن خلدون: "الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبلا قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة". ولهذا السبب اعتبر بعضهم المتنبي وأبا العلاء حكيمين لا شاعرين، لأن شعريهما لم يجر على أساليب العرب، أو طرقتهم في الصياغة والتعبير، التي اصطلح النقاد على تسميتها بعمود الشعر.

ماهية النثر: النثر عو الكلام الكثير المتنثر، تشبيها له بنثر المائدة ونثر الولد، وتدخل هذه اللفظة بيئة الثقافة الأدبية بهذا المعنى أي على أنها الكلام الكثير المتفرّق. ثم تقصر على الكلام الأدبي الذي يسمو على الكلام العادي تعبيرا ومعنى، ويستعملها النقاد والأدباء بهذا المفهوم على أنها ذلك الكلام الفني غير المنظوم الذي يقابل الكلام المنظوم.

يقول ابن طباطبا: "واعلم بأن سائر العبارة في كلام العرب غما أن يكون منظوما وإما أن يكون منثورا، والمنظوم عو الشعر والمنثور هو الكلام". ويقول ابن خلدون: "اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين: في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى.. وفي النثر وهو الكلام غير الموزون".

جملة القول: النثر فن قولي يقبل الشعر مقابلة تضاد لا تناقض، فلكل منهما صفاته الخاصة به، ومع هذا فهما يتفقان في أشياء ويختلفان في أخرى. ولكي تتضح لنا تلك الحقيقة علينا أن نتبين ذلك في الشكل الفني والموضوع، والوزن والإيقاع، واللغة والتخييل والخيال.

الموضوع: رغم تناول فنون النثر العربي كالخطابة والكتابة والمقامة بعض موضوعات الشعر فإن كل فن من هذه الفنون النثرية كان يختلف عن الشعر في طريقة معالجته لهذه الموضوعات لاختلاف أشكاله وسماته الفنية عما يماثلها في الشعر._ثم عن موضوع الشعر يختلف أصلا عن موضوع النثر، فالنثر يرجع في الأصل على الخطابة والكتابة، وقد كان لكل فن من هذين في بداية نشأته موضوع يختلف عن موضوع الشعر؛ ولكن التطور الفني الذي جدّ عليهما بعد ذلك جعلهما يلتقيان مع الشعر في موضوعه.

الشكل الفني:

قال ابن خلدون: "كلام مفصّل قطعا قطعا متساوية في الوزن متّحدة في الحرف الأخير من كلّ قطعة وتسمّى كلّ قطعة من هذه القطعات عندهم بيتا ويسمّى الحرف الأخير الّذي تتّفق فيه رويّا وقافية ويسمّى جملة الكلام إلى آخره قصيدة وكلمة. وينفرد كلّ بيت منه بإفادته في تراكيبه حتّى كأنّه كلام وحده مستقلّ عمّا قبله وما بعده. وإذا أفرد كان تامّا في بابه في مدح أو تشبيب أو رثاء فيحرص الشّاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقلّ في

محاضرات في الأدب الأندلسي الدكتور: مسعود بن سباي

إفادته. ثمّ يستأنف في البيت الآخر كلاما آخر كذلك ويستطرد للخروج من فنّ إلى فنّ ومن مقصود إلى مقصود بأن يوطّئ المقصود الأوّل ومعانيه إلى أن يناسب المقصود الثّاني ويبعد الكلام عن التّنافر.

كما يستطرد من التّشبيب إلى المدح ومن وصف البيداء والطّلول إلى وصف الرّكاب أو الخيل أو الطّيف ومن وصف الممدوح إلى وصف قومه وعساكره ومن التّفجّع والعزاء في الرّثاء إلى التّأثّر وأمثال ذلك. ويراعي فيه اتّفاق القصيدة كلّها في الوزن الواحد حذرا من أن يتساهل الطّبع في الخروج من وزن إلى وزن يقاربه. فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على كثير من النّاس"

ويبدو أن هذا الشكل الفني لم يطرأ على الشعر العربي دفعة واحدة ولكنه تكوّن على مراحل وفترات زمنية متباعدة. فهم يذكرون أن الشعر بدأ رجزا وقطعا، ثم قصد بعد ذلك. ولم يكن الشعر العربي كله على هذا الشكل فقد اختلف شكل شعر الصعاليك مثلا، وافتتحت قصائد بمقدمات خمرية بدل الطللية.

الوزن والإيقاع: من السمات التي يشترك فيها الشعر والنثر الفني الوزن والإيقاع، اللذان يحدثان في الكلام ضربا من التنغيم، تلذ له الأذن وتطرب له النفس، وهذه الخصيصة تبدو بشكل واضح في الشعر عنها في النثر. والنثر الفني يتمتع بلون من الإيقاع شأنه في هذا شأن الشعر، ولكنه مع هذا يختلف عن إيقاع الشعر كما وكيفا ومصدرا.

فإيقاع الشعر مبعثه توالي الحركات والسكنات في التفعيلة الواحدة، ومن تركيب بعضه ببعض يحدث الوزن؛ بينما ينشأ الإيقاع في النثر من التناسب اللفظي أو المعنوي بين بعض الألفاظ والعبارات، ومن ضروبه السجع والطباق والجناس. وتعدد مصادر الإيقاع في النثر، لا يؤدي إلى وحدة موسيقية عامة للنغمة في النص كله، على الرغم من وحدة موضوع النص، ولذلك نقول عنه مفكك وغير مترابط أحيانا. على عكس ما يحدث في الشعر من إيقاع.

اللغة: ولما كانت لغة الشعر تتسم بالإيجاز في عرض المعنى والدلالة غير المباشرة في التعبير كان حظها من المجاز أوفر بكثير من حظ لغة النثر. أما لغة النثر فحظها من الصور المجازية قليل، وسبب ذلك اعتماد الكاتب في عرض أفكاره ومعانيه على الوضوح التام والتحليل والدقة اللغوية. ولذا كان النثر ادق من الشعر في عرض المعاني وتحليلها، وكان الشعر أقدر من النثر على الوصف والتصوير. إن أدق الفروق الفنية بين الشعر والنثر من الناحية كون لغة الشعر تركيبية ولغة النثر تحليلية.

التخييل والخيال: يعد الخيال مظهرا من المظاهر الدالة على تشابه الشعر والنثر في بعض الصفات واختلافها في درجة اتصاف كل منهما بتلك الصفات ويشارك الخيال في هذا الموضوع والإيقاع واللغة. ومردُّ هذا على ما يبدو اتصال هذين الفنين بعضهما ببعض في البيئة الأدبية آخر الأمر ومحاولة بعض الأدباء الكتابة فيهما معا والإجادة فيهما معا حتى أصبح هذا سمة من سمات الأديب آنذاك. وقد أدّى هذا إلى اتصاف الشعر ببعض صفات النثر واتصاف النثر ببعض صفات الشعر.

معجم النقد الأدبي القديم - أسعد رشدي